فلسفـــــة الأسماء

للأستاذ عباس محمود العقاد

أقام السير رونالد ستورز طويلاً في القاهرة ، واشترك في كثير من حوادث مصر والشرق الأدنى قبل الحرب العظمى وبعدها ، وأعطى نفسه نصيباً وافياً من المتعة بالأدب والفنون ولا سيما الموسيقى والتصوير إلى جانب اشتغاله بالسياسة خافيها وظاهرها . وقد لقيته مرة أيام البحث في تحويل « الأوقاف » من ديوان إلى نظارة ، وكان يومئذ « سكرتيراً شرقياً » لدار الوكالة البريطانية ، فبدأنا الكلام بروايات برناردشو والنقد الانجليزي الحديث ، ثم استطردنا إلى أعمال الاحتلال والادارة الوطنية فقال : أظن أن ديوان الأوقاف يختل لأنه المصلحة الوحيدة التي ليس عليها رقابة أجنبية ! ولا أدري أكانت هفوة لسان منه أم كانت سبراً لغوري واختباراً لمقدار ما يستبيحه من الأقوال والآراء على مسمع مني في صدد الأوقاف وتحويلها إلى رقابة الحكومة . فقلت له : إن المجلس البلدي الاسكندري أعظم اختلالا من ديوان الأوقاف وهو مملوء بالرقابة الأجنبية . فاستدرك كلامه الأول وأخذنا في حديث آخر ، وانصرفت وهو يقول بعد انصرافي للأستاذ حسين روحي الذي كان واسطة التعارف بينه وبيني : « صاحبك لا يزال في بداية الشباب »

ولم أره بعد ذلك ، ولكني سمعت بمشروعاته الكثيرة ومنها ما حدثني به في تلك الزيارة ، كإحياء صحيفة « المؤيد » وإنشاء بعض الصلات الأدبية والفكرية بين الغرب والشرق على أيدي المثقفين من الأوربيين والمصريين . ثم وصل إلينا في هذا الشهر كتابه الذي أسماه « تشريقات » أو مشرقيات ، وضمنه تاريخ حياته في مصر وفلسطين وقبرس وبلاد العرب وغيرها من الأقطار الشرقية القريبة ، فاذا هو كتاب حافل بالملاحظات واللمحات كما ينتظر من تعليقات رجل سياسي فنان حسن المراقبة للناس والمتابعة للحوادث والأحوال . ولقد أخطأ في بعض هذه الملاحظات واللمحات خطأ ربما ساقه إليه حب الزخرفة والتنميق .

ولعلنا نعود إلى بيان بعضه في مقال آخر ، ولكني أردت في هذا المقال أن أقف عند ملاحظة لاحظها على أسماء الخدم والخصيان في قصر الأميرة نازلي وغيره من القصور ، وهي أنها محصورة في محاكاة الجواهر والرياحين قلما تخرج عنها ، لأنني عنيت بهذه الأسماء في بعض الأوقات ودار البحث فيها بيني وبين أناس من المشتغلين بعلم النفس في المدارس المصرية العليا ، فعللوها تعليلا يخالف ما اعتقدت ولا يوافق التواتر عن تاريخ الزنوج والعبيد

كنا في إحدى المكتبات العامة فدخل إليها خادم زنجي له اسم من أسماء الجواهر ، فقال أستاذ واقف معنا : ألا ترون « مركب النقص يفعل فعله في أسماء هؤلاء الخدم ؟ إنهم يشعرون بما لهم من بخس القيمة فيعوضونها بنفاسة الأسماء ! »

وكان هذا التعليل يستقيم على ذلك الوجه لو أن الخدم الزنوج يختارون الأسماء لأنفسهم ولا يختارها لهم النخاسون والسادة الذين يشترونهم ، ولكن الواقع أنهم يسمون بغير علم منهم ، وعلى غير معرفة باللغة العربية ولا بأسماء الجواهر والرياحين فيها أو في غيرها

وإنما الحقيقة على ما يبدو لي أن رغبة السادة هي الملحوظة في التسمية لا رغبة العبيد والخدم المبيعين ، ولهذا يقتصرون تسمية العبيد على نوع من أربعة أنواع بين الأسماء : القتنيات النفيسة وما شابهها من الرياحين الجميلة ، أو ألفاظ التفاؤل ، أو الشهور والأيام التي تم فيها الشراء أو تمت فيها الولادة ، وإلا فكلمة عبد مضافاً إليها اسم من أسماء الله الحسنى كعبد الله وعبد الكريم وعبد الباسط وما يشعر بالتفاؤل والدعاء خاصة

فالخصيان والعبيد يسمون بجوهر وفيروز ومرجان وياقوت ولؤلؤ وألماس كأنهم قنية نفيسة يباهى بها صاحبها ؛ ويلحق بهذا تسميتهم بريحان وكافور ونرجس كأنهم من أدوات التجمل والزينة في البيوت

فان لم يكن هذا فهم يسمون بما يدل على التفاؤل والاستبشار بالخير بعد شرائهم ، فيدعونهم بسعيد ومبخوت وسرور وفرحات وقدم خير وخوش قدم وما إلى ذلك من ألفاظ التمني والرجاء ؛ والملحوظ في ذلك هم المالكون كما أسلفنا لا العبيد والجواري

فان لم يكن هذا ولا ذاك فأسماء العبيد تكثر فيها أسماء الأيام والشهور والمواسم مثل خميس وجمعة وشعبان ورمضان ومحرم وعيد وربيع ، لأن مالكيهم حين يشترونهم لا يعرفون لهم سمة يسمونهم بها غير اسم اليوم أو الشهر الذى كان فيه الشراء

عنيت باستقصاء هذه الأسماء ودلالاتها فى بلدي أسوان حيث تعيش جمهرة من الزنوج السود ، وحيث يندر بيت لا يكون فيه عبد أو جارية من بقايا أيام الدراويش

ثم التفت إلى الأسوانيين أنفسهم فتبين لى من أسمائهم وحدها أن البلدة « عصبة أمم » عجيبة يلتقى فيها أناس ترجع أصولهم إلى جميع القارات ما عدا القارة الأمريكية ، فمنهم من هو فى أصله تركي أو كردى أو من فارس وأعلى العراق ، ومنهم من هو عربى أو مغربى أو حبشى ، ومنهم من هو مجرى أو بشناقي أو من أهل البلقان ، وبعضهم لا يذكرون هذه الأصول وإن دلت عليها حروف وإضافات فى الألقاب

على أننى لم أكن أحفل بالدلالات الجغرافية والتاريخية كما كنت أحفل بالدلالات النفسية والاجتماعية ، ففى هذه دليل أمتع من كل دليل على قرابة الإنسان وتشابه العقائد والخوالج بين البشر وإن باعدت بينهم البحار والصحارى وآماد الدهور

كنت أعجب لأناس يدعون بأسماء الكلاب والحشرات ، وأحسب أنها ألقاب تحقير أطلقها عليهم الأعداء أو المتهكمون الماجنون ثم غلبت عليهم فعرفوا بها بدلا من أسمائهم ، ولكنى علمت أن أسماء الكلاب والحشرات هى أسماؤهم التى دعاهم بها آباؤهم وأمهاتهم ، وأن الآباء والأمهات قصدوا إلى ذلك قصداً ليعيش لهم أولئك الأبناء ، كأنما يحقرونهم ويشبهونهم بالحيوان الأعجم والحشرة المهينة ليزهد فيهم الموت ويأنف من أخذهم إليه!

والعجيب أن هذه العقيدة كانت سارية فى يونان القديمة ومصر القديمة والشرق القديم ، ولا تزال سارية حتى اليوم في بعض القبائل الأفريقية التى تؤمن بالأرواح الشريرة وتخاف منها على أطفالها وصغارها ، وتحصنهم منها بحصنات شتى إحداها حقارة الأسماء أو بشاعتها . ولا شك أن اسم « معاوية » مثلا وهى الكلبة التى تعاوى الكلاب يمت بصلة إلى هذه العقيدة ، كما يمت إليها اسم هريرة وما إليه

ولحقارة الأسماء وبشاعتها سبب آخر غير تزهيد الأرواح الشريرة فيها ، وذاك هو التخويف بها أو احترام « الطواطم » المعبودة حيث كان الأقدمون يتبركون بها ويعتقدون أن أسلافهم من سلالتها

فني القبائل المقاتلة التي تعيش على الغارة ولا تزال فى خوف من الاغارة عليها يسمى الرجل بما يكره الأعداء ، وترى بينهم من يدعونه ذئباً أو أسداً أو حنظلة أو جمرة أو حرباً وما إلى ذلك من المخوفات والمنفرات

وفى القبائل التى تؤمن أو كانت تؤمن « بالطواطم » يسمى الرجل كلباً أو ثعلباً أو صقراً أو نسراً كما يتفق من أصول الطواطم القديمة الباقية بمناوبتها وان نسيها أبناء القبيلة

ويقول السائحون بين القبائل التى على الفطرة إنهم يكرهون البوح بأسمائهم ويستريبون بمن يسألهم عنها ، لاعتقادهم أن الاسم جزء من الانسان من عرفه استطاع أن يسلط على صاحبه أرواح الشر والمرض واتخذه هدفاً يقذف عليه المتاعب واللمات . ونحن المتحضرين المحدثين نحسب اننا بعيدون مترفعون عن هذه الطبقة المسفة من طبقات العقول الآدمية ، حتى نسمع « سحاراً » يسأل عن اسم المقصود بالسحر واسم أمه فنعلم أن المسافة بيننا وبين الفطريين أقرب مما نتوهم ، ولا سيما فى سراديب الظلام التى يهبط إليها من يهبطون ساعة الفزع أو ساعة الضغينة

ولا ريب أن حياة الأمة بين ماضيها وحاضرها تتمثل كثيراً فى أسماء أبنائها ؛ فنعلم أن الأقوام التى تنحصر أسماؤها فى الظواهر الطبيعية سماوية كانت أو أرضية إنما هى أقوام فطرية لم تدرك من العلامات غير هذه الظواهر لتميز الرجال والنساء ، وأن الأقوام التي تظهر فيها أسماء الصناعات كالنجار والحداد والقصاب والزيات والعطار والعقاد قد تقدمت أشواطاً في الحضارة ، وأن الأقوام التى تظهر فيها العناوين الاجتماعية قد عرفت بذخ الملك وألقاب التشريف ومراتب الطبقات ، وأن الأقوام التى يذكر فيها الحرب والبطش والعداء قد درجت على الغزو ورعاية الماشية ، والتي يذكر فيها الهدى والرشد والصلاح